



مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352

EISSN :6723-2600



دور الرحلات العلمية في التأريخ لفتح وهران الثاني 1792

(رحلة العالم مصطفى بن زرفة الدحاوي المسماة بالرحلة القمرية في السيرة المحمدية- أنموذجا)

The role of scientific trips in the history of the conquest of Oran II 1792

The Journey of the Scholar Mustafa Bin Zorfa Al-Dahawi called the lunar journey in the)

(Muhammadan biography - a model

علي طاليبي

Ali talibi

جامعة حسيبة بن بوعلبي بالشلف (الجزائر)

مخبر تاريخ الإنسان والعمران والتراث في منطقة حوض الشلف

a.talibi82@univ-chlef.dz

جمال حريشة

Djamel haricha

جامعة حسيبة بن بوعلبي بالشلف (الجزائر)

مخبر تاريخ الإنسان والعمران والتراث في منطقة حوض الشلف

d.haricha92@univ-chlef.dz

الملخص:

تعتبر الرحلة القمرية في السيرة المحمدية رحلة ذات طابع رسمي فرضتها اوضاع أمنية ارتبطت بالاحتلال الاسباني لوهرا، فهي تؤرخ لأحداث تاريخية وتخلد سيرة الباي محم الكبير الذي يظهر من خلال الرحلة على انه تحصل على اجماع حول عظمة شخصيته، تتميز هذه الرحلة كونها رحلة جهادية قام بها الباي محمد الكبير. وفي هذا المقال سنتعرف على القيمة العلمية لهذه الرحلة كونها تؤرخ لمرحلة تحرير وهران من يد الاسبان ، كما سنقف عند اسلوب بن زرفة في كتابة هذه الرحلة كونه انه اعتمد على ما شاهده بعينه على ارض الواقع وما حضره من احداث ، ونجد في هذه الرحلة وصفا دقيقا لحالة الجنود واهم الملاحظات عليهم واهم المعوقات التي صادفتهم في هذه الرحلة، و تؤرخ هذه الرحلة الى العلاقة القوية والمتينة بين بن زرفة كاتب الباي ومحمد باي وهران ودورهما في عملية تحرير وهران.

الكلمات الدالة : مصطفى بن زرفة الدحاوي، الرحلة القمرية، محمد الكبير باي وهران، الرحلة.

Abstract

The lunar voyage in the Muhammadan biography is considered an official journey imposed by security conditions linked to the Spanish occupation of Oran. Muhammed the Great.

In this article, we will learn about the scientific value of this trip, as it chronicles the stage of liberating Oran from the hands of the Spaniards. The soldiers and the most important notes on them and the most important obstacles they encountered on this trip. This trip chronicles the strong and solid relationship between Ben Zerfa, the scribe of the bey, and Muhammad Bey of Oran, and their role in the process of liberating Oran.

Keywords. Mustafa Bin Zorfa Al-Dahawi, The Lunar Journey, Mohammed Al-Kabeer Bey Oran, The Journey.

مقدمة:

يزخر العهد العثماني في الجزائر برصيد هام من الرحلات التي يصعب حصرها، وهذا لكثرتها وسكوت المصادر عن ذكر أسماء الكثير منها، كما ان العديد منها قد ضاعت ولم يعثر لها على اثر الا في كتب التراجم والسير والتاريخ والادب وتركت لنا كثيرا من اسماء هؤلاء ومن بينهم نجد الرحلة القمرية في السيرة المحمدية لمصطفى بن زرفة الدحاوي خلال تحرير وهران.

تعتبر الرحلة كتابة ملتبسة لسفر واقعي او متخيل يسمح بالسفر عبر المكان والاجناس والأنساق والكلمات، وقد تكون الرحلة خاصة بالأفراد لأغراض علمية او سياحية او دينية لتأدية فريضة الحج، او تكون رسمية كأن يصطحب قائد الجيش او الحاكم كاتباً معه يدون ما يقع اثناء هذه الرحلة.

تعتبر الرحلة القمرية في السيرة المحمدية رحلة ذات طابع رسمي فرضتها اوضاع أمنية ارتبطت بالاحتلال الاسباني لوهران، فهي تؤرخ لأحداث تاريخية وتخلد سيرة الباي محمد الكبير الذي يظهر من خلال الرحلة على انه تحصل على اجماع حول عظمة شخصيته، تتميز هذه الرحلة كونها رحلة جهادية قام بها الباي محمد الكبير. تحظى هذه الرحلة بمكانة علمية كونها تعتبر فهرسة ذات طابع جغرافي وسياسي، وهي تشبه موسوعة لأنها تضم معلومات جد متنوعة، حيث تضمنت هذه الرحلة الترغيب في الجهاد والترهيب فيمن يتغافل عنه، والتعريف بمدينة وهران (جغرافيا واجتماعيا)، ومراحل عملية الجهاد في سبيل تحرير وهران.

وفي هذه الورقة البحثية سنحاول ان نجاب عن الأسئلة التالية :

- فمن هو بن زرفة؟
 - وما هو مضمون رحلته؟
 - وما هي القيمة العلمية لهذه الرحلة؟
- وهل يمكن ان يعتد بها في كتابة التاريخ العثماني للغرب الجزائري في العهد العثماني؟

1. التعريف بشخصية محمد بن مصطفى بن زرفة الدحاوي.

1.1 مولده ونشأته :

اختلفت الكتابات والروايات التاريخية في ضبط اسمه فقد سمي مصطفى بن عبد الله الشهير بنسب الشيخ الولي عبد الرحمن بن علي المعروف بمرضعة جده زرفة وذلك حسب كتاب الافتاء في حكم جوائز الامراء والخلفاء وله اسم محمد المصطفى بن عبد الله ابن عبد الرحمن المعروف بابن زرفة حسب كتاب الرحلة القمرية في السيرة المحمدية وله اسم أبو عبد الله محمد المصطفى بن عبد الله بن زرفة وعموما هو مصطفى بن عبد الرحمن بن زرفة الدحاوي اختلفت الروايات في تاريخ ومكان ميلاده حفيد العالم الجليل عبد الرحمن بن علي المعروف بدحو بن زرفة (ت 1065هـ-1654م) (تقي الدين بوكعير ، سبتمبر 2019، ص3) العالم الولي له مكانة

رفيعة عند الحكام وله تلامذة كثر كعبد الرحمن بن عبد الله التوجيني مؤلف كتاب (عقد الجمان النفيس في ذكر الاعيان من أشرف غريس) (درعي فاطمة، 14 ديسمبر 2016، ص150)

ويعود سلف الامام مصطفى بن زرفة إلى الاندلس وهم من بني حمود فهم من القبائل نسبا وأوضحها حسبا وأشدها بأسا بدأ تعليمه في مرحلته الاولى بحفظ القرآن الكريم ليتعلم فيم بعد الفقه والحديث والتوحيد ثم ينتقل إلى مدينة معسكر فدرس على يد استاذه أبي راس الناصري فنبغ في علوم عصره العلوم الدينية واشتهر بنظم الشعر كما له قصائد في أغراض متعددة ومن شيوخه ايضا الذين تتلمذ على أيديهم نجد الشيخ مكي بن عيسى الذي تولى مناصب القضاء والافتاء والتدريس والشيخ أبو طالب المازوني الذي تولى التدريس وله حلقات علم ورواده كثر ولعب أدوارا مهمة في استباب السلم والامن وحل النزاعات والخلافات (تقي الدين بوكعير ، 1440/2020/2019، ص146)

وقال عن تلميذه محمد مصطفى الدحاوي بأنه الفقيه الصالح المدرس الناجح وبأنه ملازم للدرس وناصح صادق قال عنه أبي راس الناصري بأنه نشأ نشأة سوية مبنية على عفاف وطهارة وبشارة فهو من علماء الراشدية الأذكياء الكرام الأصفياء فهو كبير العلماء العاملين الفاضلين له باع في طلب العلم والمعرفة كما أنه كاتب بارع ناظم نثر وكريم الفضائل والاخلاق والشمائل بين الحسب والنسب الأصيل. (الأغا بن عودة المزاري، د.ت، ص289).

وقد اشتغل كاتبا عند الباي محمد الكبير وعين مساعدا لرئيس رباط أفري للطلبة قرب وهران خلال الحصار الثاني لفتح وهران وتحريرها من الصليبيين الاسبان (1205هـ/1791م) وقد شارك بنفسه في الهجوم الشامل وتحرير المدينة عام 1792 كما عين ابن زرفة قاضيا بوهران إلى غاية 1801/1800 وتشير الروايات أن له أخ شارك معه في فتح وهران كما أن زوجته غير معروفة وعدده أولاده أيضا. (عز الدين مشري ، 2019/2018، ص116).

2.وظائفه ومساهمته في أحداث عصره:

تبقى الوظائف التي تولها السيد محمد المصطفى مجهولة إلا ما ورد عنه في بعض مؤلفاته من أنه كان يشغل منصب مفتى وقاضي محلة الباي محمد الكبير بتلمسان في حدود سنة 1189هـ/1775م مع وجوب التنبه إلا أن الباي محمد الكبير في هذه الفترة كان لا يزال يشغل وظيفة خليفة باي الغرب ولم يرتقي إلى وظيفة الباي إلا سنة 1779م ، وأنه كان يستشير ويطلب منه إصدار الفتاوى في النوازل التي تعرض عليه كما هو حال عند تأليفه لكتاب الإكتفاء يقول في هذا الصدد:« فبعث إلي رسوله في الحين أن أجب أمير المؤمنين فأسرعت لإجابته وبادرت لإمثال إشارته فحين خيمة برسومه ووجدت روح نسيمه خاطبي ببديع كلامه وفصيح نظامه أنه يؤمل مني تأليف كتاب مختصر يحتوي على أنقال صحيحة في أخذ الجوائز من ذوي الملك والأمراء... ، ثم من هذا التاريخ وإلى غاية سنة 1205هـ/1790-1791م وتحرك جيوش الفتح نحو وهران لم تشر المصادر إلى مصير الشيخ محمد المصطفى. خلال هذا الحدث الهام عين من طرف الباي دائما ككاتب ومدون لمسار الفتح فكان كتابه الرحلة القمرية، لعين بعد فتح وهران قاضيا لها إلى غاية وفاته بداء الطاعون.

أما عن مشاركاته في مختلف الحروب التي خاضها الباي محمد فلا شك أنه كان من بين المستجيبين لنداء الجهاد، ومن ذلك مشاركته في رد الهجومات الإسبانية على مدينة الجزائر يتحدث الشيخ عن تحرك الجيش نحو مدينة الجزائر قائلا: «فسار بنا يقدم عسكريه وهو الشجاع المقدام الأسد الضرغام قاصدا تجاه العدو... ، بقي محمد المصطفى مع جيش الباي من يوم 14 شعبان 1189هـ/09 أكتوبر 1775م، إلى غاية يوم 7 رمضان 1189هـ/31 أكتوبر 1775م، وهو تاريخ عودة الجيش إلى مدينة معسكر يقول الشيخ:» فكان يوم 7 رمضان يوم عيد وحق ذلك ليوم الإثنين إذ طالعه سعيد ركبنا عشيتة المطايا مغربين وبقهر العدو والإياب فرحين...»

أما عن أهم حدث شارك فيه الشيخ محمد المصطفى هو فتح وهران والذي كما سلف يعتبر هو المدون الرسمي لأحداثه، انخرط الشيخ في صفوف جيش الطلبة لكن لم يلتحق به منذ أول يوم لانطلاقه الذي كان في بداية شهر ربيع الثاني 1205هـ/07 ديسمبر 1790م، حيث يقول: «ولما استهل هذا الشهر وبان صبح ليله وافتر أذن سيدنا الأمير أيده الله بالعون والتمسير أن ينفر الطلبة لرباط وهران...»، إلا أنه التحق به يوم 8 جمادى الأولى 1205هـ الموافق لـ 12 جانفي 1791م ، يقول عن التحاقه بالمعسكر: «وفي ثامننه وهو اليوم الأول من السنة العجمية قدم على الطلبة مقيد هذه الرحلة القمرية من حضرة سيدنا الأمير...» (الدحاوي، الرحلة: 143)، لا يعلم سبب تأخر التحاق الشيخ بجيش الطلبة، لكن الأكيد أن التحاقه بهم تزامن مع غياب شيخ الطلبة الشيخ محمد بن عبد الله الجلاي الذي كان في أم عسكر.

ويفهم من خلال إحدى رسائل الباي إلى الطلبة أنه الشيخ محمد المصطفى كان من بين المسؤولين عليهم هذه الرسالة المؤرخة بيوم 28 جمادى الأولى 1205هـ/01 فبراير 1791م، نصها كما يلي: «الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله السيد محمد بن أبي طالب والسيد المصطفى بن عبد الله والسيد محمد بن أبي سيف وكافة الطلبة خصوصا الشيوخ السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ورضوانه العميم وتحياته وبعد فترونا بعثنا لكم سي عبد القادر بن البوري وبيده الدراهم اقسموها على الطلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبا في القسمة وكل قسمة أعطوها خمسة وعشرين ريالا بوجوهها مؤونة شهرهم هذا من غير القمح وقد فرنا لكل قسمة حملا من القمح نفقة شهر وما أشرتم لنا به في كتابكم على طحن القمح فالיום أمر ذلك لكم فاعملوا شطارتكم في ذلك ونحن قد بلغنا لكم نفقة الشهر فاحتفظوا ما قدرتم ومن فرط فلا علينا فيه وما فضل من الدراهم يحفظه الشيخ المصطفى بن عبد الله تحت يده حتى يقدم الشيخ محمد بن عبد الله يضيفهم لما تحت يده سابقا حتى يصرفهم إن شاء الله هذا ما منا غليكم والله يصلح حالنا وحالكم بمنه أمين وكتب مسلما عليكم وطالبا صالح الدعاء منكم بأمر السيد محمد باي وفقه الله تعالى بمنه أمين» (الدحاوي، الرحلة: 149)

يفهم من نص هذه الرسالة أن الشيخ محمد المصطفى كان متولي للشؤون المالية للمعسكر في غياب الشيخ محمد بن عبد الله الجلاي، بل واستمر الأمر حتى بمحضر هذا الأخير حيث تكلف الشيخ المصطفى بأعباء تموين رباط وهران بما يحتاجه من المؤن خاصة اللحم من الأسواق المجاورة وهذا عملا بتوجيهات الباي حيث أمرهم في إحدى رسائله فقال: «لا بد أن تأتوا بجزارين من الأسواق القريبة لكم وادفعوا لهم ما يحتاجونه من الدراهم التي تحت يدكم يجلبون بها الأنعام ويذبحونها بين ظهرانكم لينتفع الطلبة بشراء اللحم ويتيسر عليهم ما عسر عليهم...» (الدحاوي، الرحلة: 160)

فاستجاب لهذا الأمر الشيخ محمد المصطفى قال : «فركبت حينئذ أنا عبد الله تعالى في الحين إذ وافق ذلك سوق الأربعاء عند قبيلة الدوائر... وتعاقد الشيخ محمد المصطفى مع مجموعة من الجزائريين حتى يأتوا باللحم إلى رباط الطلبة» (الدحاوي، الرحلة: 160)، وعلى هامش حضور الشيخ هذا السوق عقد مجلس قضاء بطلب من الدوائر للنظر في الخصومات والظلمات « ففصلت بين الجميع بما أراني الله» (الدحاوي، الرحلة: 161). ومن الأمور المهمة التي تولاهما الشيخ محمد المصطفى هو مراسلة الباي محمد الكبير وإطلاعه على مجريات الأحداث أو طلب المزيد من الإمدادات. ليعين بعد فتح وهران قاضيا عليها حيث وصفه الشيخ أبو راس فقال: «حائز الرياسة بوهران وأم عسكر» (الناصر، 1990: 73)، واستمر بهذا الوظيفة إلى غاية وفاته.

3.1 أهم مؤلفاته

كتاب الرحلة القمرية في السيرة المحمدية: ألفه يعتبر هذا الكتاب من أشهر مؤلفات الشيخ محمد المصطفى الذي ألفه بأمر ولي نعمته الباي محمد الكبير حيث قال: « فإن أولى ما اقتني من المحامد وأحرى ما سعى في تحصيله كل ساع وحافد إجابة ولي الأمر بنهل المجهود في تحصيل موجب المالك المعبود بامتثال أمره اللازم الفرض إذ طاعته كما قيل من طاعة الله بعض ..» (الدحاوي، الرحلة: 01). قسم الكتاب إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

تطرق رحمه الله في الفصل الأول إلى الحديث عن فضل الجهاد ومحاربة العدو مستشهدا بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث وترغب في الجهاد مشيرا إلى فضائل الجهاد ومراتب الشهداء. أما الفصل الثاني فخصصه للحديث عن أسباب فتح مدينة وهران حيث جعل حدوث الزلزال الذي أصاب المدينة قبل الفتح أهم سبب لفتحها وهذا بتاريخ ليلة السبت 29 من المحرم المفتوح سنة 1205هـ/07 نوفمبر 1790م، متحدثا عن مدى الزلزال الذي وصل أثره حتى مدينة معسكر وتتابع الاهتزازات التي زادت من إضعاف حالة الحامية الإسبانية بمدينة وهران، ومن الملفت أن الشيخ تطرق إلى أسباب حدوث الزلزال ولعل أغرب وذكرين سببين ذكرهما السبب الأول وهو أن الأرض على ظهر ثور تتسلط عليه ذبابة تدخل أنفه فيحرك رأسه فتهتز الأرض نقل هذا عن الشيخ الشبرخيتي في شرحه لمختصر خليل دون أن يعقب عليه، أما السبب الثاني وهو أن الزلزال ناجم عن تحريك ملك بأمر الله لعرق جبل ق هذا الجبل الذي تتوغل عروقه في أصل الأرض فإذا أراد الله أن يعذب قوما أمر الملك بتحريك العرق فتهتز الأرض من دون أن يعلق على كل هذه الروايات.

كما تحدث في هذا الفصل عن الرؤى التي رآها الصالحون وعموم الناس والتي بشرت بقرب فتح وهران مركزا على الرؤية التي رآها الباي محمد نفسه.

أما الفصل الثالث فخصصه لترجمة الباي محمد الكبير ومدحه جمع في هذا الفصل مختلف القصائد التي قيلت في هذا الباي وخص بالذكر قصيدة الشيخ أبو العباس احمد المقرئ التي مدح فيها الباي ومسجده ومدرسته كما ذكر قصيدته هو في مدح الباي محمد .

أما الفصل الرابع خصصه للتعريف بمدينة وهران منذ تأسيسها معتمدا على كتب المؤرخين والرحالة المسلمين القدماء، كما تطرق خلال هذا الفصل إلى المحاولات السابقة لفتح وهران كمحاولة الباي شعبان والداي محمد بكداش والباي مصطفى بوشلاغم، كما تطرق خلال هذا الفصل إلى قضية مقتل العروج أخ خير الدين بربروس، كما تحدث في هذا الفصل عن قصة سيدي الهواري مع الاحتلال الإسباني لوههران وأنه دعى عليها فتم الاحتلال وأردفها بقصة الشيخ احمد بن يوسف الملياني ودعاءه على هذه المدينة .

أما الخاتمة فتطرق فيها إلى الترغيب في سكنى وهران وفضل الرباط بها حيث تحدث مطولا عن فضل الرباطات ، تحدث عن علماء وهران كالشيخ الهواري والشيخ ابراهيم التازي رحمها الله.

وبانتهاء الخاتمة يشرع في الحديث عن مسير فتح وهران حيث يبدأ بشهر صفر سنة 1205هـ / أكتوبر 1790م، وقبل الحديث عن مجريات الفتح خلال كل شهر يتطرق إلى حديث عن الأحداث التي وقعت خلال حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى غاية شهر رجب الفرد الذي به ينتهي الجزء الأول الموجود من الرحلة، ويليه الجزء الثاني المفقود.

حرص الشيخ محمد المصطفى على تدوين أحداث هذا الفتح يوم بيوم فكان عمله أهم مصدر لتتبع مسار وأحداث الفتح، ورغم أهمية هذا الكتاب إلى أنه لم يحض بعناية كافية حيث نشر مرة لكنه يحتاج إلى تحقيق جاد وصارم.

وقد تضمن هذا الجزء معلومات تاريخية هامة تتمثل في طريقة الاحتفال ببعض المناسبات كيوم المولد النبوي الشريف ويوم النايير، كما تضمن دفاع السيد محمد المصطفى عن مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ومشروعية رفع الصوت عند الذكر، كما تحدث عن الوضع الطبي في الرباطات ونوعية الرعاية الصحية التي كانت تقدم للمجاهدين.

أما منهجه في التأليف فقد صرح به حين قال: «معلما أن الرحلة لا تحتل التبويب والتفصيل ولا يبرهن على صحة ذلك بدليل بادرت إذ فاتني ذلك أن نترجمها بشهور السنة القمرية، وموضع فصولها مشاهير الوقائع المحمدية، دائر فيها مع دوران فلك القمر متبركا في تعدادها بالنقباء الإثنا عشر فكل شهر ترجمان سيرته وسمسار صفقته في رحلته محليا لبات الشهور بما حضرني فيها من الآثار» (الدحاوي، الرحلة: 03).

أما عن تاريخ تدوينه فلم يذكره المؤلف لكن أشار ابن سحنون أنه أمر بتأليفه وهو مرابط برباط إفري يقول دحاوي في هذا الصدد: «وكننت بحمد الله تعالى أسجل مراحلها ومناهلها ونهل شرابه ومعاليله لا على وجه التأليف بل على سبيل اللف والتصنيف»، لكنه لم ينهه نظرا لانشغاله بأمور الحرب، فلما تم الفتح عكف على إتمام هذا المؤلف (الراشدي، 2013: 155)، حيث استعان بما وجدته في مكتبة الباي محمد الكبير يقول في هذا الشأن: «لما عزمتم على الانطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق دخلت إلى مجلسه الرحيب وتظلللت بأفياء غصنه الرطيب فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه عمرها الله تعالى بطول عمره ودوام منصبه ما استظهر به على ما أنا بصده فكان كالدليل المعين على السفر بزاده»، وفي هذا الصدد قال ابن سحنون: «ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرواة ويجمعها من الرسائل وغيرها ويضمها إلى ما قيده حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا» (الراشدي، 2013: 155)، يفهم من هذا النص أن

كتاب الرحلة القمرية وإلى غاية يوم الثلاثاء الخامس من رمضان سنة 1207هـ/15 أبريل 1793م، وهو تاريخ الإنهاء ابن سحنون لكتابه الثغر الجماني لم ينتهي الشيخ من كتابته .

- كتاب تلخيص الجمان من حياة الحيوان (تقي الدين بوكعير ، سبتمبر 2019، ص 161)
 - كتاب الوقائع: لايزال مفقود يتمحور حول الصراع الحاصل بين السلطة التركية في بايليك الغرب وفي منطقة الراشدية بمعسكر وبين قبائل الحشم.
 - كتاب فتح وهران وجامع الجوامع الحسان: ويؤكد المؤرخ يحي بوعزيز ان هذا الكتاب هو نفسه الرحلة القمرية وذلك لتشابه المضمون.
 - كما له كتاب الاكتفا في حكم جوائز الامراء والخلفاء: ألفه بأمر من الباي محمد الكبير وقد كتب على مرحلتين وشرع بتدوينه في تلمسان .
- وله قصائد عديدة (درعي فاطمة، 14 ديسمبر 2016، ص 152) لبراعته في النظم واتقانه للغة العربية وأدائها وعلومها وفنونها وله أغراض في الشعر من رثاء وبكاء ومدح للبايات وله قصائد في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ،
- وقد بلغ العالم مصطفى بن عبد الله شريف غريس مكانة علمية، فكان محل تقدير من السلطة والعلماء ، حتى قال عنه ابو راس الناصري: "كبير العلماء العالمين والجهابذة الفاضلين.." ، وله قصيدة انشدها عندما شيد محمد الكبير قبة البرج الاحمر بوهران سنة 1207/1793.
- وله كتابات على أسئلة كبار العلماء وله صفات عديدة ممثلة في العقل الراجح والديانة والعفاف والكفاف والصيانة ومعروف بالتدقيق والتحقيق، واشتهر بمناظرات مع كبار العلماء ، وعمل مفتيا ومستشارا للباي محمد الكبير في عديد القضايا السياسية والاقتصادية خاصة إضافة إلى مراسلات بينهما ، حيث ارسل من طرف الباي إلى رباط يفري بعد المناوشات التي وقعت بين القبائل العربية والاسبان بضواحي وهران سنة 1786 ، حيث قام العلامة بتدوين أحداث الفتح ، وتشير المصادر المحلية الغربية انه توفي إثر الطاعون الذي أصاب بايليك الغرب والمعروف بطاعون عثمان(تقي الدين بوكعير ، سبتمبر 2019، ص 198) الذي حدث سنة 1213هـ في حين يذكر بعض الباحثين أنه توفي في يوم 29 ذي الحجة 1215 الموافق ل تاريخ 1800م أما العلامة أبو راس الناصري فقد أشار بقوله توفي في حالة الشيبة دون تحديد تاريخ معني لوفاته.

1.4. وفاة الشيخ محمد المصطفى:

لعل الاستثناء الوحيد في التأريخ للشيخ محمد المصطفى هو تعرض بعض المصادر لذكر وفاته على سبيل الإجمال وليس بشكل دقيق، فتشير المصادر الغربية إلى أنه توفي إثر الطاعون الذي أصاب بايلك الغرب والمعروف بطاعون عثمان، هذا الطاعون الذي حدث حسب الشيخ العربي المشرفي سنة 1213هـ/1799. 1800م(فرقان، 2014: 181)، أما المازاري فاكتفي بالقول أنه توفي بالطاعون الذي حدث زمن الباي عثمان دون أن يحدد تاريخ وقوع هذا الطاعون (المازاري، 2007: 301)، أما الشيخ أبو راس فقد صرح أنه توفي شابا دون أن يحدد سنة وفاته حيث قال: «حتى توفي في حالة الشيبة» (الناصر، 1990: 72).

وقد علل صاحب كتاب إتمام الوطر الشيخ محمد الزقاي بأن سبب موت الشيخ محمد المصطفى بقاء الشاهدة على حد تعبيره وهو داء الطاعون، موقفه من الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزقاي التلمساني الذي اختلف معه كما تمت الإشارة إليه سابقا حول قضية حكم أخذ الأعطيات والجوائز من الملوك وأن الشيخ محمد المصطفى كان يوغر قلب الباي عثمان ضد الشيخ الزقاي ويشوه صورته لديه فعقد الباي مجلس مناظرة انتصر فيه الشيخ الزقاي على خصومه وعلى حد تعبير صاحب الكتاب دائما فإن الله سبحانه وتعالى انتقم من خصومه « لاسيما القاضي مصطفى بن دحو الذي جهل قدره وتعدى طوره وبسط في الإذابة باعه وشبره وتولى من ذلك الأمر كبره فقد حاق به سيء مكره وعاجله الله بقره فأخذه داء الشاهدة وبيع ببيع البراءة بغير عهدة فلم يلبث إلا يسرا من الأيام حتى تجرع كأس الجِمام بعد مقاساة الألام العظام...» (الزقاي، 2011: 65-66)، هذا النص وعلى ما تضمنه من كلام يرفضه العقل قبل الدين فمهما بلغت الخلافات وجب على المسلم أن يتعفف عن الخوض في أعراض الناس والتشفي في موتهم فإن كان سبب موت الشيخ محمد المصطفى بقاء الطاعون هو الخلاف الذي وقع بينه وبين الشيخ الزقاي فما ذنب كل أولئك الذين ماتوا بسبب هذا الطاعون خاصة وأن مصادرها تشير أن عدد كبير من الناس قد مات من جراءه ، حيث تشير هذه الأخير أن هذا الطاعون عم الجزائر كلها وكان يموت بسببه بمدينة الجزائر وحدها 300 شخص يوميا، ثم اجتاحت هذا الطاعون المغرب الأقصى فنجم عنه موت حوالي ثلث سكان المغرب (فرقان، 2014: 181).

2. مسار رحلته واهم ما ميزها :

يتميز العهد العثماني بخصائص سياسية واقتصادية وعسكرية وظواهر دينية وثقافية جعلت منه عهدا متميزا عن غيره من فترات تاريخ الجزائر بطابعه ، ومن عاش في هذه الفترة من علماء وأدباء وفقهاء ومؤرخين تأثروا بطبيعة العهد واصطبغ إنتاجهم بصبغة خاصة تجلى من خلال بصمة العهد فيه.

يحتوي العهد العثماني في الجزائر على رصيد هام من الرحلات التي يصعب حتى تعدادها، ويعود ذلك إلى كثرتها وسكوت المصادر عن ذكر أسماء الكثير منها، كما أن العديد من الرحلات قد ضاعت ولم يعثر لها على أثر. إلا أن كتب التراجم والسير والتاريخ والأدب تركت لنا كثيرا من أسماء هؤلاء ، ومن بين هذه الرحلات نجد " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" التي ألفها مصطفى بن زرفة الدحاوي خلال تحرير وهران.

هي رحلة ذات طابع رسمي فرضتها أوضاع أمنية مرتبطة بالإحتلال الإسباني لوهران ، فهي بذلك تؤرخ لأحداث تاريخية وتخلد سيرة الباي محمد الكبير الذي يظهر من خلال الرحلة أنه حصل على إجماع حول عظمة شخصيته وقد ظهر ذلك جليا في كتابات معاصريه من العلماء أمثال أبي راس الناصري حيث قال عنه : " الباي الأسعد الأجد الأوحده عزيز النصر ، ونخبة العصر ، وريحانة الدهر ، السادل على الرعية الأمن والأمان ، الباي السيد محمد عثمان أتحفه الله بالرضى والرضوان وألحقه مطايرف التكريم في الجنان .

كلف الباي العالم مصطفى بن زرفة بجمع الحوادث عن فتح وهران وتسجيلها فجمعها في كتاب سماه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" الذي أنهاه سنة 1206/1792هـ ، ويذكر ابن سحنون أن الباي ومن حبه للعلم وإحسانه للعلماء الأخيار أن الكثير من التأليف نشأت بأمره حيث أمر بعض الطلبة بجمع فتاوي العلماء ،

ويضيف بن سحنون أن البايع أمره باختصار الأغاني فاخصره في نحو الثمانين كراسة فأثابني بمائة سلطاني ثم أمرني أيضا بجمع طب القاموس فضمته وزدت عليه من كلام الأطباء ما صار به تأليفا بديعا حسن الترتيب فأثابني عليه بخمسين سلطاني ، وقد كنت ألفت باسمه كتابا في الأدب سميته عقود المحاسن ، ويقول أيضا أنه عندما أنزل البايع الطلبة ب " يفري " أمر السيد مصطفى بن عبد الله وهو إذ ذاك معهم بتقييد الحوادث الواقعة فيما يتعلق بالجهاد وما يصل الطلبة من رزق وغيره ، فقيد قليلا ثم اشتغل عن التقييد إلى أن حصل الفتح فهو الآن يتلقى الأخبار من أفواه الرواة ويجمعها من الرسائل وغيرها ويضمها إلى ما قيده حتى يصير المجموع إن شاء الله كتابا .

يقول العالم بن زرفة في تعريفه لمؤلفه "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية" : " جعلت أمام المقصود مقدمة تشمل أربعة فصول وخاتمة .

عنون الفصل الأول ب " الترغيب في الجهاد والترهيب لمن تغافل عنه من العباد" ، ويظهر اعتماده على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتي تبين مستوى ثقافة بن زرفة وما اكتسبه من علوم ومعارف والتي كانت في الأساس علوم دينية .

الفصل الرابع خصصه للتعريف بمدينة وهران حيث يقول عنها : " هذه المدينة كتلمسان كثيرة الأحوال تلاعبت بها أيد الدهور فغيرت الأحوال ولذلك لم تدم على حال " (مصطفى ابن زرفة، 2003، ص 156)، كما عرفها بقوله : " وهران مدينة كبيرة بناها ملوك مغراوة سنة تسعين ومائتين بالمعنى ، ثم ملكها في جملة أمصار المغرب الأوسط ملوك الشيعة لما استفحل ملكهم بالقيروان ثم ارجع ملكها بنو خزر ، ملوك مغراوة(مصطفى ابن زرفة، 2003، ص 267) وبعد تعريفه لمدينة وهران ، يبدأ شيخنا بن زرفة رحلة إسترجاع وهران وتحريرها في متن الرحلة فقال : " ففي يوم الإثنين أول يوم من شهر صفر المذكور جاءت البشارة لسيدنا الأمير المنصور بعون من بيده مقاليد الأمور بأن مدينة وهران قد زلزلت أركانها ودكت دورها وحيطانها ، وأن النصراري أخزاهم الله قد خيموا خلالها بأبراجهم في الفساطيط والخيام ، رعب مما حل بهم من وابل الإنتقام ، فركب أيده الله فيمن حضر من جيشه في الحين".

يؤكد بن زرفة في هذه الرحلة أنه اعتمد على ما شاهده بعينه على أرض الواقع وما حضره من أحداث بالإضافة إلى ما أخذه من كتب التاريخ والأخبار ، حيث قال في ذلك : " لما عزمنا على الإنطلاق وعقدت لتقييد الرحلة حبل النطاق ، دخلت على مجلسه الرحيب ، وتظللت بأفياء غصن الرطيب فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه ، عمرها الله تعالى بطول عمره ودوام منصبه ما أستظهر به على ما أنا بصده ، فكان كالدليل المعين على السفر بزاده ، والطبيب إلى أتحف المريض بجميل أياديه. (مصطفى ابن زرفة، 2003، ص 365)

اعتمد بن زرفة على كتب التاريخ للإستشهاد بها خلال كتابته لمراحل الرحلة ، والتي كان يذكرها بعناوينها وأسماء مؤلفيها وهو ما أعطى مصداقية أكثر للرحلة القمرية. تتبع بن زرفة في رحلته تحركات البايع محمد الكبير وتعامله مع عسكره ، وكيفية تفكيره في خططه وتوزيع جيشه قصد ضمان هزيمة العدو ، حيث يقول في ذلك :

"ثم أن سيدنا الأمير فرق عساكره ترهيبا للكفرة ... و بقي هو أيده الله في دائرته المنيفة ، وذوي خاصته الشريفة بالمحلة الكبرى (مصطفى ابن زرفة، 2003، ص 366)

حاول بن زرفة من خلال الرحلة إظهار دوره فيها وإبراز علاقته القوية بالباي ، ويظهر ذلك من خلال الرسائل التي كان يرسلها إليه بقصد تبليغ أوامره وملاحظاته للمجاهدين من جنده ، أو رسائل الرد التي تأتيه منه ، والتي في بعض الأحيان كان يطلب من خلالها مشورته ، بل أن الأمر يتعدى ذلك أحيانا حيث نجد بن زرفة يتدبر الأمور ويراسل الباي ويقترح عليه الحلول ، ويشير عليه بما يجب فعله ، وفي نفس الوقت يبرز له العواقب ويقول في ذلك : "وقد كنت دبرت في عاقبة هذا الأمر وكاتبنا سيدنا الأمير أمد الله بالعون والتيسير ما حوزته بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن الطلبة لا يستقيم أمرهم في تعيين الأخبية ، واخذ القمح وطحنه ، وحمله لهم من البادية فدبرهم على القوت فيها ، وما هذه الأمور عليك بعسيرة وإلا فتخاف . وينقض بذلك من المرابطين عهدهم.

2. الأهمية العلمية للرحلة :

تعد من أهم الرحلات المغاربية التي تميزت بتنوع موضوعاتها وطروحاتها إن لرحلة العلامة والفقيه والشاعر مصطفى بن زرفة الدحاوي المعسكري أهمية تاريخية فهي تؤرخ لأحداث تاريخية ما تعلق بشخصية وسيرة الباي محمد الكبير وقوته في الحكم وانجازاته ومجهوداته في ارساء دعائم السلم والامن وتنمية البلاد في عديد المجالات خاصة الثقافية فاستطاع الباي خلق حركية ثقافية من خلال بناء المساجد والمدارس والمكتبات وتمويلها واعدادها وتقريب العلماء والمرابطين واهتمامه أيضا بالرعية في اصلاح أمورها وله أهمية في التعريف بمدينة وهران عاصمة بايليك الغرب وتاريخها الحافل منذ القدم إلى غاية رحلة استرجاعها من يد الاسبان فيقول هي مدينة كبيرة بناها ملوك مغراوة ثم ملكها في جملة أمصار المغرب الاوسط ملوك الشيعة لما استفحل ملكهم بالقيروان ثم ارجع ملكها بنو خزر وملوك مغراوة والعلامة نقل هذه الوقائع والاحداث من باب انه عايش الاحداث بعينه على أرض الواقع كما انه من العلماء البارزين في إثراء الثقافة من خلال الكتابات في مختلف المجالات لقد لعب العلامة مصطفى بن زرفة دورا كبيرا في تدوين الاحداث التاريخية فتحدث عن محاصرة الباي الذي كان كاتبها عنده للاسبان في وهران وفتحها للمرة الثانية والاخيرة وكان يجمع الاخبار والرسائل وغيرها للوصول إلى الوثائق الرسمية وكتاب الرحلة القمرية في السيرة المحمدية يتضمن اربعة 4فصول مع مقدمة وخاتمة فيها فضل الجهاد ومحاربة العدو ومراتب الشهداء في الفصل الاول أما الفصل الثاني فيتحدث عن أسباب الزلزال الذي أصاب المدينة قبل الفتح 1790/1205 اما الفصل الثالث فيه ترجمة للباي محمد الكبير ومدحه بمختلف القصائد اما الفصل الرابع فقد تضمن التعريف بمدينة وهران منذ تأسيسها معتمدا على كتب المؤرخين والرحالة المسلمين وتطرق إلى المحاولات السابقة لفتح وهران وقضية مقتل عروج بربروس اخ خير الدين وتحدث عن قصة سيدي الهواري مع الاحتلال الاسباني كما تحدث العالم على تدوين أحداث الفتح وعن طريقة الاحتفال ببعض المناسبات الدينية كمولد النبوي الشريف وعن الوضع الطبي ونوعية الرعاية الصحية.

4. خاتمة:

- يعتبر العالم مصطفى بن زرفة من العلماء البارزين في الجزائر خلال العهد العثماني الذين كان لهم دور بارز في إثراء الثقافة من خلال كتاباتهم في مختلف المجالات ، وقد ظهر شيخنا سواء من خلال مؤلفاته أو من خلال تقديم علماء آخرين له ووصفه بأفضل الصفات. قدمت الرحلة القمرية تطورات الفتح من خلال سرد للأحداث بشكل منظم باعتبارها رحلة رسمية اعتمدت على وثائق أصيلة منحها مصداقية أكبر.
- تكمن أهمية الرحلة كونها تؤرخ لمرحلة مرت في تاريخ الجنوب الوهراني الكبير خلال العهد العثماني وهي مرحلة تحرير وهران من يد الاسبان ، كما سنقف عند اسلوب بن زرفة في كتابة هذه الرحلة كونه انه اعتمد على ما شاهده بعينه على ارض الواقع وما حضره من احداث ، فهي تأريخ حقيقي للأحداث في تلك المرحلة، هذا بالإضافة الى ما اخذه من كتب التاريخ والاحبار، كون ان صاحب هذه الرحلة ليس من عامة الناس بل هو عالم مدرك للعلوم والكتابة التاريخية لذلك نجد في هذه الرحلة وصفا دقيقا لحالة الجنود واهم الملاحظات عليهم واهم المعينات التي صادفتهم في هذه الرحلة، كما تؤرخ هذه الرحلة الى العلاقة القوية والمتينة بين بن زرفة كاتب الباي ومحمد باي وهران ودورهما في عملية تحرير وهران.
- لم يكن الشيخ محمد المصطفى الدحاوي أكثر أهل زمانه تأليفا، حيث يمكن حصر مؤلفاته على أصابع اليد الواحدة، إلا أن كتاباته من الأهمية بمكان نظرا لما تحويه من معلومات تاريخية ومعطيات ثقافية وتعكس متغيرات اجتماعية لا نجدها في غيرها من المصادر المحلية.
- هذه الكتابات يمكن أن نصفها بأنها كتابات سلطوية كتابات صدرت وأنجزت بتحفيظ من السلطة الحاكمة، سلطة سعت من خلال تقريرها من العلماء وجعلهم يسبحون في فلكها لتبرير بعض أفعالها كما هو الحال مع كتاب الإكتفا، أو تخليد ذكرها كما هو الحال مع كتاب الرحلة القمرية، أو نوع من الترف الفكري والاستمتاع الأدبي كما هو الحال مع تلخيص الجمان.

6. المراجع

1. ابن زرفة مصطفى، الرحلة القمرية ، تحقيق مختار حسان، جامعة الجزائر مخبر المخطوطات ، دط، 2003،
2. بوكعير تقي الدين - فغور دحو ، الاسهامات العلمية للشيخ محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي العسكري مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ مج 15 ع1 سبتمبر 2019.
3. بوكعير تقي الدين تلخيص الجمان من حياة الحيوان لمحمد المصطفى بن زرفة الدحاوي العسكري رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم دراسة وتحقيق سنة 2019/2020/1440.
4. درعي فاطمة، العالم مصطفى بن زرفة ورحلته القمرية مجلة الحوار المتوسطي العدد13-14ديسمبر 2016.
5. الزقاي محمد بن موسى، إتمام الوطر في التعريف بمن اشهر في أوائل القرن الثالث عشر، تحقي ماحي كندوز، الجزائر: دار كردادة للنشر والتوزيع، 2011
6. الشقراني الراشدي أحمد بن عبد الرحمن ، القول الأوسط في أخبار من حل بالمغرب الأوسط

7. عز الدين مشري الممارسة الدينية والرابطة الاجتماعية الطقوس والرهانات اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه علوم جامعة وهران 2/الموسم 2019/2018.
8. الفرقان حسن، أدبيات الأوبئة في مغرب القرن 19 نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي، المملكة المغربية: منشورات دار التوحيد. 2014
9. المازري الأغا بن عودة ، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج 1، دار الغرب الإسلامي.
10. الناصر أبو راس المعسكري، فتح الإله ومنتته بالتحدث بفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر. 1990